الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

# جذور الكراهية وأصول العداء بين المسلمين والغرب

د. شاكر النابلسي
كاتب اردني- امريكا

**رُسمت صورة أوروبا في التاريخ الإسلامي القديم وفي الآداب الإسلامية من خلال جغرافيين عرباً ومسلمين بارزين ظهروا في القرن التاسع والعاشر الميلادي ، ومن أهمهم : اليعقوبي ، وابن خرداذبه ، والمسعودي ، وابن فضلان ، وابن حوقل ، والإصطخري ، وابن سعيد الغرناطي وغيرهم.**

## صورة قديمة للغرب

و لا شك بأن هؤلاء جميعاً قدموا صورة شبه حقيقية لما كان عليه الغرب في تلك المرحلة. كما أن الجغرافي الإدريسي في القرن الثاني عشر قدم لنا مشاهداته الخاصة في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وكان صادقاً فيما كتب على عكس ما قرأنا من مشاهدات المتعصبين الدينيين المعاصرين، عندما زاروا الغرب للعلم والسياحة، كما فعل سيد قطب عندما زار أمريكا في نهاية الأربعينيات (أنظر كتاب صلاح الخالدي، "أمريكا من الداخل بمرآة سيد قطب").

وكانت جملة الصور التي قدمها هؤلاء الجغرافيون والمؤرخون عن أوروبا، بعيدة عن التعصب الديني والسياسي، وتنحصر في أوروبا الشرقية أكثر منها في أوروبا الغربية.

وكانت هذه الصور تقول لنا أن الشعوب الأوروبية كانت شعوباً بربرية منحطة غارقة بالجهل والعدوان.

فلم يعتبر هؤلاء المؤرخون والجغرافيون الحقد والكيد الذي اعترى المتشددين الدينيين الذين زاروا الغرب وشاهدوه في النصف الثاني من القرن العشرين. وكانت تحكم نظرتهم وانطباعاتهم عن الغرب أيديولوجيا ضيقة معينة.

الحملات الصليبية والتعريف بالغرب

ولم يعرف العرب والمسلمون أوروبا على حقيقتها إلا بعد حملة نابليون على مصر في نهاية القرن الثامن عشر برغم أن الصليبيين قد وصلوا إلى العالم العربي في القرن الحادي عشر وظلوا في الشرق العربي والإسلامي طيلة ربع قرن من الزمان (١٠٧٥-١٢٠٠). فنقرأ أن أسامة بن منقذ (١٠٩٥-١١٨٨) مؤرخ الحملات الصليبية لم يذكر عن الصليبيين غير جهلهم وشجاعتهم. وكان موقف هذا المؤرخ من أوروبا عموماً هو "موقف اللامبالاة مثله مثل سابقيه من المؤرخين. حيث لم يكن المؤرخون العرب والمسلمون يقيمون وزناً كبيراً لأوروبا. وكانت الأمم المعتبرة في القرن التاسع عشر حتى القرن الحادي عشر وما بعده أربعة أمم فقط هي: العرب والروم والفرس والهند. أما بقية الأمم فهمج وأشباه همج كما وصفها الجاحظ في القرن التاسع الميلادي.

وبذا، لم تحث الحملات الصليبية على العالم الإسلامي المسلمين إلى التعرف على هؤلاء الفرنجة، الذين جاءوا غزاة وحكموا بيت المقدس طيلة ربع قرن من الزمان. (خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، ص٣١).

وربما كان مردُ هذا كله إلى أن الصليبيين لم يأتوا بمظاهر حضارية ومدنية تستوجب الالتفات من المؤرخين والمفكرين العرب والمسلمين كما تم ذلك بعد سبعة قرون، عندما قاد نابليون (١٧٦٩-١٨٢١) حملته على مصر في عام ١٧٩٨، إضافة لذلك، فإن نظرة تعالي العصبية القبلية والشعور بالتفوق الذاتي حالت دون العرب - قبل حملة نابليون - ودون الالتفات إلى ما كان يجري في أوروبا من تغيرات وتقدم حضاري.

## الستار الحديدي العثماني

وعندما خضعت البلاد العربية للعثمانيين (١٥١٧-١٩١٨) كان العثمانيون قد أنشأوا ستاراً حديدياً ثقافياً سميكاً بينهم وبين أوروبا. وكانت هناك قطيعة ثقافية وسياسية مُحكمة مع الغرب بسبب التعالي والتفوق الذاتي والعسكري العثماني، كما كان الحال عند العرب سابقاً. ولم تبدأ هذه القطيعة بالانحلال والانفراج إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر حيث تم إرسال أول بعثة عثمانية إلى أوروبا في عام ١٦٦٤، ولم تفتتح الدولة العثمانية سفارات رسمية لها في أوروبا إلا في أيام السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) ولم يكن هناك تواصل ثقافي قبل ذلك إلا في حدود تبادل الخبرات العسكرية وفتح المدارس العسكرية بخبرات أوروبية وفرنسية بالدرجة الأولى، وترجمة بعض الكتب الأجنبية في علم العسكرتاريا. وعندها أدرك العثمانيون أنهم يعيشون منذ قرون طويلة في ظلام دامس وجهل فاضح، كما جاء على لسان محمد جلبي السفير الذي أوفده السلطان أحمد الثالث إلى باريس في عام ١٧٢٠ للتعرف على المؤسسات الإدارية الفرنسية وكيفية عملها وما يمكن الاستفادة منها في الإمبراطورية العثمانية، فاكتشف جلبي بأن الفرق بين العثمانيين والغرب هو الفرق بين الليل والنهار.

## العثمانيون والثورة الفرنسية

وعندما قامت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ لم يعر العثمانيون انتباهاً لهذه الثورة وكأن الأمر كان لا يهمهم من قريب أو من بعيد. و "ليس لدينا ما يشير إلى أن العثمانيين كانوا على إدراك تام بمغزى التبديل الذي حصل في فرنسا. بل على العكس من ذلك فقد اعتُبرت الثورة الفرنسية شأناً داخلياً بحتاً". وأما العرب الذين كانوا تحت الاحتلال العثماني فلم يعرفوا شيئاً عما جرى في فرنسا من أحداث ثورية. ولم يدرك العرب أن هناك ثورة في فرنسا إلا عندما جاءت حملة نابليون إلى مصر. والدليل أن عبد الرحمن الجبرتي كان قد كتب كتابه "عجائب الآثار" قبل مجيء الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ ، ولم يُشر في هذا الكتاب لا من قريب ولا من بعيد إلى أوروبا أو إلى ما يحصل في فرنسا من تغيرات تاريخية وسياسية واجتماعية. وهو دليل واضح وقاطع على أن القطيعة الثقافية مع الغرب ظلت قائمة تسعة قرون كاملة غير منقوصة، من نهاية القرن التاسع الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر.

## حملة نابليون والتعريف بالغرب

ومن هنا نستطيع القول، بأن حملة نابليون على مصر، هي التي فتحت عيون العرب على الغرب. وكانت أول اتصال حضاري حقيقي وواقعي مشهود بين العرب والغرب وبين الإسلام والغرب بعد تسعة قرون من الغياب والقطيعة الثقافية والحضارية. ولولا مجيء نابليون إلى مصر لكان تاريخ المنطقة العربية قد تغير إلى شكل آخر كلية يمكن قراءته من خلال عدة سيناريوهات للواقع المضاد Counter factual . ويؤيد هذا الرأي عدة مفكرين عرب معاصرين، ومنهم طه حسين الذي يعتبر حملة نابليون لا بداية لغزو ولكن بداية لنهضة على مصر، كما يعتبرها "حملة مباركة". وأن مدافع نابليون هي التي أيقظت مصر من سباتها العثماني، ووضعت حداً لقرون العرب الوسطى فكانت إيذاناً بالنهضة. (انظر: طه حسين، ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية، ص١٦٦ وانظر: علي أومليل، الاصلاحية العربية والدولة الوطنية، ص١٣٧)

## الغرب مرآة الشرق

وبعد حملة نابليون أصبح الغرب مرآة للشرق. وبدأت القطيعة الثقافية بالانحلال والتلاشي. وكان أول عمل ثقافي بدأ بإزالة هذه القطيعة كتاب رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-٧٣) "تخليص الأبريز في تلخيص باريز" الذي كتبه في عام ١٨٣١ بعد عودته من رحلته التعليمية في فرنسا، عندما شرع محمد علي باشا في فتح أبواب مصر وعقلها في وجه الحضارة الغربية والفرنسية على وجه الخصوص. ومما يجدر ذكره أن كتاب الطهطاوي، قد تمت ترجمته أولاً الى اللغة التركية لا العربية، ليصل الى الرسميين في الدولة، ما يدل على ضعف اللغة العربية في تلك الفترة بين صفوف الرسميين والنخبة.

## أهمية كتاب الطهطاوي

إن أهمية وخطورة كتاب الطهطاوي هذا، لا تنبع من الوصف الذي جاء به لفرنسا فيما يتعلق بمصانعها وتنظيم إدارتها وموظفيها وجيشها وجمال عمرانها ونظافة مدنها وعظم معاهدها ورقي تعليمها وارتفاع مستوى معيشة سكانها، وكل هذا قد تم في غفلة من العرب والمسلمين. فهذا كله قد سبقه إليه في عام ١٧٢١ المؤرخ التركي محمد جلبي أفندي في كتابه "سفارتنامة" الذي كتبه قبل أكثر من مئة عام من تاريخ كتاب الطهطاوي. ولكن الشيء الجديد الذي جاء به الطهطاوي في كتابه، ولم يأت به التركي الجلبي، هو نفاد الطهطاوي مريراً في نهايات القرن العشرين. إلى حقيقة ما جاءت به الثورة الفرنسية، ومن قبلها الإصلاح الديني الأوروبي، وهو تألق عصر العقل، ومعنى الحداثة في النهضة الأوروبية، ورسوخ الفكر العلماني، وهو ما عبر عنه الطهطاوي-ربما من حيث يدري أو لا يدري - بقوله:

إن الفرنسيين ينكرون خوارق الطبيعة.

إن الفرنسيين يعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية.

إن الفرنسيين يعتقدون أن الأديان إنما جاءت لتدل الإنسان على فعل الخير.

إن الفرنسيين يعتقدون أن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم في الآداب تسد مسد الأديان.

وإن الممالك عامرة تضع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية.

إن الفرنسيين يقولون أن عقول حكمائهم أعظم من عقول الأنبياء. وذلك قبح منهم. (رفاعة الطهطاوي، المؤلفات الكاملة، مج٢، ص٧٩).

## المانيفستو الخطير

وهذا "المانيفستو" الفرنسي الخطير الذي نقله إلينا الطهطاوي عبر كتابه والذي لم يلتفت إليه كثير من قراء كتابه في القرن التاسع عشر، كان أهم رسالة نقلها إلينا الطهطاوي من الغرب إلى الشرق. وهي تُلخص ما انتهى اليه العقل الغربي مقابل الفكر العربي. وكان هذا "المانيفستو" الخطير هو الذي بَرَدَ وسنَّ أسلحة الإسلاميين المتشددين ممن فهموا معنى كلام الطهطاوي هذا، في نهايات القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين للصدام بين الغرب والإسلام. فلم يكن الطهطاوي ومن بعده علي مبارك (١٨٢٣-٩٣) من خلال كتابه "علم الدين" ومجموعة من مفكري ومصلحي القرن التاسع عشر صداميين مع الغرب بقدر ما كانوا يسعون إلى تقميش الإسلام ببعض جوانب الحضارة الأوروبية والتوفيق بين الإسلام والغرب وأخذ العلم من أوروبا وترك الأخلاق لأهلها هناك. وهو ما عبر عنه مبارك بقوله "ما علينا من أخلاقهم وعاداتهم وإنما علينا من أحكامهم ومبانيهم". وما الصدام الذي تم بين الغرب والإسلام إلا نتيجة لأن بعض مفكري القرن التاسع عشر كالأفغاني ومحمد عبده قد خلطوا بين القيم الثقافية والعلمية والجمالية وبين القيم الأخلاقية واعتبروها كلها وحدة واحدة لا تتجزأ ولا تنفصل. وذلك كان الخطأ الثقافي الأكبر الذي جعل من الصدام بين الإسلام والغرب مريراً في نهايات القرن العشرين. ولم يكن هذا من اختراع الأفغاني أو عبده أو غيرهما من مفكري عصر النهضة من التيار الإسلامي، ولكن ذلك كان نظرة الإسلام إلى القيم وهي نظرة أخلاقية بحتة تزن كل القيم على اختلاف أنواعها بميزان القيم الأخلاقية فقط التي جاء بها الإسلام وبشر بها.

## من هنا بدأت الحرب

واعتبر مفكرو عصر النهضة من التيار الإسلامي، أن فرنسا والغرب العلماني من ورائها هي "دار حرب" يجب أن تتحول إلى "دار إسلام". واعتبر المتدينون المتشددون من العرب والأتراك - وبتحريض من يهود الدولة العثمانية النافذين آنذاك - في القرن التاسع عشر أن كل ما كان يأتي من الغرب لا يتعدى أن يكون زندقة وسفالة فرنسية. في حين كان المسلمون في الهند أكثر مرونة وأعمق فهماً لروح الحضارة الغربية، كما قرأنا فيما كتبه السيد أحمد خان (١٨١٧-٩٨) ومن بعده أمير علي.

## الجانب المضيء في الغرب

ولعل ما قام به مفكرو عصر النهضة من العرب والمسلمين من المناداة بالديمقراطية والعدالة والمساواة والقضاء على الطغيان والاستبداد وهو ما شاهدوه في أوروبا قد جعلهم يعودون إلى بلادهم ويبحثون في الدين الإسلامي عن بصيص لهذه الأفكار لكي يقمشوا الإسلام بها من خلال إيقاظ أفكار الشورى الإسلامية والعدالة الإسلامية. وقد بلغ بهم الأمر في مناسبات كثيرة أن خالفوا وصية عمر بن الخطاب في عدم تحميل هذا الدين ما لا يحتمل. فحملوا الدين بما لا يحتمل، وبما لم يقل، وبما لم يع من قبل، حتى لا يقال عنهم إنهم ينادون بتطبيق أفكار غربية ومبادىء غربية بعيدة عن الدين، وغريبة عن تراث السلف وما أخلف للخلف.

فلا شك أن أيديولوجية الإسلام تختلف عن الأيديولوجية الغربية. وأن صراع الأيديولوجيات وصدامها مع بعضها بعضاً من ثوابت التاريخ وحتمية التطور. ولكي ندرك الفرق بين أيديولوجية الإسلام وأيديولوجية الغرب وسبب الصراع بينهما ولا سيما في القرن العشرين، دعونا نعقد المقارنة التالية بينهما:

١- في الإسلام الإنسان هنا مخلوق. والله جل وعلا هو سيد الكون المُطاع، وهو سيد الإنسان. أما في الثقافة الغربية فالانسان خالق، وهو سيد الكون المطاع، وسيد نفسه كذلك.

٢- يربط الإسلام وجود الإنسان والعالم بسبب خارجي، هو الله. في حين ينظر الفكر العلمي في الغرب إلى الإنسان والعالم لذاتهما في معزل عن أي سبب خارجي.

٣- يقر الإنسان في الإسلام غيب الله كعلم سري. أما الغرب فيلغي ما يسمى بالغيبيات والعلم بالغيب. أعلن الإسلام الحرب على الغرب لإعلانه الحرب على الله. في حين أعلن الغرب الحرب على الله حتى يعطي الإنسان حريته كاملة.

٤- الإسلام مجتمع مثالي أخلاقي روحي. رغم أن بعض المفكرين العرب كطه حسين ينكر في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" أن الحضارة الغربية حضارة مادية، وأن الحضارة الشرقية حضارة روحية. ويقول إذا كان الشرق كذلك فهو ليس شرقنا، بل الشرق البعيد. وإذا كانت أوروبا مادية فإنها تنطوي أيضاً على روح عظيمة تدفع إلى التضحية في سبيل العلم. في حين يعتبر المجتمع الغربي نفسه مجتمعاً مادياً أخلاقياً مختلفاً.

٥- يمتثل الإسلام إلى الشريعة والحكمة، بينما يمتثل المجتمع الغربي إلى الحكمة والعقل.

٦-يعتبر الإسلام أن ثنائية الخير والشر من عند الله. بينما يعتبر المجتمع الغربي أن ثنائية الخير والشر من عند الإنسان ومن صنعه.

٧- يبخس الإسلام من شأن الحياة ويطلق عليها "الحياة الدنيا"، أي الحياة السفلية الدنية. في حين أن المجتمع الغربي يُعلي من شأن الحياة، ولا يعترف بالآخرة. ويعتبر الحياة عليةً وليس دنيةً.

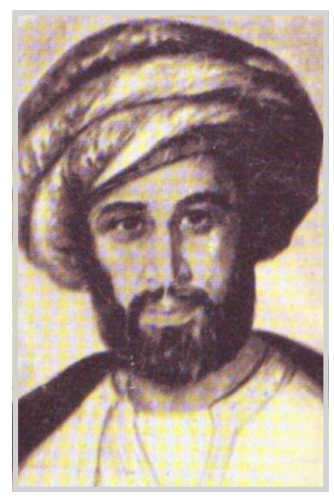
رفاعة الطهطاوي

# هزيمة حزيران .. فشل الدولة ( العربية ) الحديثة

سعد محمد رحيم
كاتب

رفع أبي صوت الراديو عالياً، وتردد صوت جهوري أجش، وسرعان ما تجمع بعض الرجال والأولاد أمام متجره الصغير في منطقة الكسرة ببغداد. وبعد كل بيان كانوا يهللون ويصفقون. وكنت أسأل أبي؛ ما الأمر؟.. ماذا حدث؟، فيقول؛ أسقطنا عشر طائرات إسرائيلية، خمس عشرة طائرة، أربعين، ستين، مئة طائرة.. دمرنا ثمانين دبابة، مئتين.. قتلنا، أسرنا.. هكذا، هكذا وسنلقيهم بعد قليل ( أيام أو ساعات ) في البحر.. وسرت فينا النشوة نحن الأولاد الصغار (كنت في العاشرة يومها ) زادتها وعززتها الأغاني الحماسية الملتهبة للمعركة بأصوات ( محمد عبد الوهاب وأم كلثوم، وعبد الحليم حافظ وفادية كامل وغيرهم ) فرحنا نشارك الكبار التهليل والتصفيق مع كل بيان جديد. وغلبنا الانفعال، نحن الصغار، فرحنا نلعب لعبة الحرب في الشارع، نتصور الصهاينة اليهود الإسرائيليين أمامنا ونطلق النار من حناجرنا، ومن أسلحة متخيلة نحملها بأيادينا الغضة.. إنه النصر المبين!! غير أن الحال اختلفت بعد بضعة أيام، وران الوجوم والتجهم على الوجوه، ولم أفهم. وأبي لم يقل لي.. ربما هو الآخر لم يفهم. وكنت بحاجة إلى انقضاء ثلاث أو أربع سنين أُخر لأقتنع بأنها كانت الهزيمة.. الهزيمة المرّة.

جرحت هزيمة حزيران ١٩٦٧ النرجسية العربية في الصميم؛ ووضعت الذات العربية، وجها لوجه، أمام مأزقها التاريخي، وكانت صدمة عقلية ونفسية غاية في الهول بحيث أن النفس العربية ابتدعت وسائل دفاعية للتخفيف من آثارها النفسية والفكرية والحضارية المدمرة. وعلى الرغم من مرور أكثر من أربعين سنة على تلك الفاجعة إلا أننا لم نعترف بها كما هي.. اعترفنا بجانبها العسكري كلياً، ربما. وببعض من جانبها السياسي، وتغافلنا إلى حد مريع عن جوانبها الأعمق والأبعد؛ عن ذلك الجانب المركب الاجتماعي والثقافي والنفسي والأخلاقي والحضاري. فلا بد إذن من عدها هزيمة مركبة بمعنى أنها كانت هزيمة فئات حاكمة وطبقات اجتماعية سائدة ونخب سياسية وثقافية فاعلة ومشروع سياسي وحضاري قاصر وخطاب سياسي ثقافي لاعقلاني ومترهل، أو على الأقل مرتبك وضيق الأفق، ساد لعقود.

وما يجعلنا نستعيد دوماً لحظة الهزيمة تلك هي أنها لم تغدُ قط لحظة مفارقة في وجودنا الزماني، أو في زمان وجودنا. ولم تكن لحظة عابرة قابلة للنسيان. إنها لحظة ممتدة ما زالت.. نعيشها ما نزال في كل لحظة، لحظة لها سلطة استحواذية على تفكيرنا وهواجسنا وقدرنا طالما أننا لم نحاول فهمها في حقيقتها وجوهرها؛ أي أن نفهم أنفسنا أولاً، ونجيب على السؤال؛ من نحن حقاً موقعاً في العالم والتاريخ؟ ماذا أصابنا، ولماذا؟ وكيف نخرج من هذه الدائرة الجهنمية التي أوقعونا فيها جزئياً، وأوقعنا أنفسنا فيها كلياً؟ وماذا نستطيع أن نفعل؟.

بحثنا عن التعويض في الكلام والبلاغة.. ليس الكلام الذي يكشف الواقع، ويرسم للعمل في الحاضر والمستقبل، بل الكلام الآخر الفضفاض، العالي النبرة، الإنشائي، الشعاراتي، والفارغ من المحتوى والمعنى.. حتى قال نزار قباني في قصيدته الشهيرة ( هوامش على دفتر النكسة )؛

"إذا خسرنا الحرب لا غرابة/ لأننا ندخلها / بكل ما يملك الشرقي من مواهب الخطابة/ بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة/ لأننا ندخلها/ بمنطق الطبلة والربابة".

وقد اطمأنت النخب إلى بلاغة الهزيمة والتي لا تتمثل في تمجيد الهزيمة بطبيعة الحال، وإنما في العودة إلى الكلام عن مجد غابر لا سبيل لاستعادته في الأفق المنظور، وعن انتصارات موهومة لا وجود لها إلا في المخيلة المحمومة والمهلوسة لبعضهم. ففي مجتمع يمنح قدسية للألفاظ لا يحتاج القول البليغ إلى برهان.. إن اللفظ يفرض نفسه حقيقة غير قابلة للجدال والتصحيح والدحض. فيما الخبرات المكتسبة لا تراكم معرفة، ولا تؤصل كفاءات ومهارات للتعاطي مع الواقع التاريخي، أو تعمل على تحويله. أما القناعات الأولى التي لا تخضع للتمحيص والمساءلة فلا تزحزحها الوقائع مهما كانت دامغة وتناقض بإفرازاتها ونتائجها تلك القناعات. وما جرى حقاً هو أن النخب بدلاً من أن ترى سوءاتها جيداً، أغلقت عيونها واستغرقت في الأوهام. وخلال سنين طويلة جرى استهلاك كلام كثير وسال حبر كثير وسودت آلاف الأطنان من الورق في محاولة للتمويه على الأسباب الحقيقية للهزيمة وهرباً منها، وليس بحثاً عنها. ولم يكن للزعيق الإعلامي الطنان والشعارات الرنانة أن يعوض عن النقص في الوعي السياسي والرؤية الإستراتيجية وضعف القدرة والكفاءة على إدارة موارد الأمة.

الفضيلة الوحيدة لحرب حزيران ١٩٦٧ أنها سلطت الضوء على أوهام كثيرة، لكن للأسف، بدلاً من مواجهة الذات بقسوة، والبحث عن بدائل أخر راحت قوى اجتماعية وسياسية تبتدع لنفسها أوهاماً جديدة، وتصدقها، بعضها أشنع من تلك التي فضحتها الهزيمة، وبعضها ليس سوى أقنعة لسابقاتها.

صحيح أن القوى الغربية المهيمنة على الساحة السياسية الدولية لم تكن تريد لإسرائيل الهزيمة. وصحيح أنها دعمت إسرائيل اقتصادياً وسياسياً واستخباراتياً وعسكرياً وإعلامياً، ووضعت تحت تصرفها إمكانيات واسعة جداً. إلا أنه من السخف أن نعزو تلك الهزيمة إلى مؤامرة الغرب وحسب في محاولة لتبرئة الذات وتسويغ صور قصورها ومواطن ضعفها.. كانت الهزيمة في جانب منها نتيجة مؤكدة لتسيد العسكريتاريا والديكتاتوريات والنظم التقليدية المتخلفة على سدة الحكم في البلدان العربية، وانتشار الديماغوجية السياسية التي أتاحت لطلاب السلطة من المغامرين والقبضايات ( الشقاوات ) الوجود في المراكز الحساسة للدولة العربية. وفي حديث تلفزيوني، قبل سنوات قال محمد حسنين هيكل ما معناه أن "سبب هزائم العرب المتتالية هو أن المعارك قادها إما عسكر لا يملكون رؤية سياسية إستراتيجية عميقة، أو سياسيون لا يفقهون ألف باء الإستراتيجية العسكرية". وطوال الوقت ونتيجة لضيق نظرتها افتقرت النخب الحاكمة لإستراتيجية فعالة تتبناها وتدعمها شرائح ومؤسسات المجتمع المختلفة. وبسبب المناخ السياسي المريض والمسموم الذي كلكل على الوضع العربي بعد حزيران ١٩٦٧ فقد صار الطريق ممهداً لتسلق الانتهازيين والوصوليين والفاسدين والمغامرين وتبوئهم المواقع القيادية للدولة والمجتمع، في بلدان عربية عديدة. غير أن الهزيمة لم تعكس فشل الأنظمة العربية في إدارة المعركة سياسياً وإعلامياً وعسكرياً فحسب وإنما عبرت عن أزمة المجتمع والدولة العربيين الحديثين عموماً؛ الدولة الوطنية، ما بعد الكولونيالية، التي لم تكتسب مقومات وشروط قيام الدولة. الأمة.

ولا يمكن البحث في أسباب الهزيمة مع إهمال أمراض الدولة ذاتها، وأولها أنها لم تقم على أساس عقد اجتماعي يضمن حقوق المواطنة لكل فرد وفئة ومكون اجتماعي أو ديني أو عرقي، في مقابل تحمل الدولة لمسؤوليتها في إدارة الموارد وتنميتها، وتحقيق الأمن الاجتماعي والرقي الثقافي والحضاري والرفاه الاقتصادي والإصلاح والديمقراطية السياسيين مع بناء القدرات العسكرية. وقد عوض النظام السياسي العربي عن عجزه وإخفاقه في مواجهة الآخر ( العدو ) بقهر رعيته من المواطنين واضطهادهم وقمعهم بذريعة أن ( لا صوت يعلو على صوت المعركة ) حتى باتت الدولة العربية في مواجهة الأمة بدلاً من أن تكون ممثلة لها ومجسدة لإرادتها وطموحها.. يقول برهان غليون في كتابه ( المحنة العربية: الدولة ضد الأمة )؛

"وما صعود وتفاقم هذا القمع إلا مظهر من مظاهر هذه الأزمة الشاملة التي تعبر عن أن الدولة، لا تعبر عن المجتمع، ولكنها تشكل اليوم مجتمعاً نقيضاً قائماً بذاته في وجه المجتمع، له منطق عمله ومصالحه وأهدافه، أعني مجتمع النخبة نفسه. إن الأزمة السياسية الاجتماعية التي نعيشها من وراء تدهور الطابع السياسي للسلطة وتعاظم القمع هو الشرخ الاجتماعي والمواجهة داخل المجتمع الواحد بين ( أمتين ) لم يعد هناك حسب التصورات العقيدية والمصلحية القائمة ما يمكن أن يجمع بينهما".

اتهمت الحركات السياسية المعارضة في حينها، السلطات بأنها لم تشرك الجماهير في المعركة، من غير أن تفطن إلى الأمراض الفتاكة التي تعانيها الشرائح الأوسع في المجتمع ( الفقر والأمية والبطالة والتخلف، الخ ) والتي لا تؤهلها لخوض معركة ناجحة في المقاييس كلها. وتحدثنا عن عسكرة المجتمع ولم نتحدث عن عقلنة المجتمع والدولة، ونسينا أن بناء قوات مسلحة وطنية قوية يتطلب أولاً بناء دولة حديثة على قواعد وأسس علمية؛ دولة القانون والمؤسسات التي تأخذ على عاتقها مسؤولية التنمية الشاملة، وتقوم بإدارة الموارد والطاقات بما يضمن تحقيق الارتقاء الإنساني والحضاري؛ دولة المواطنة والحرية وتداول السلطة سلمياً والتنمية الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية.

فضحت الهزيمة هشاشة الدولة العربية وقصور مشروعها التنموي والنهضوي ( إن كان مثل هذا المشروع موجوداً في الأصل ) فتكشفت عن دولة فاقدة للمشروعية وعاجزة عن أداء دور بناء، تغدو يوماً بعد آخر استبدادية أكثر، وهي في النهاية، لا تمتلك مقومات ومواصفات الدولة بالمعنى العصري للكلمة. ولترميم ما اهترأ من بقايا مشروعيتها لجأت إلى ترقيع مخيب للآمال هو إضفاء مسحة من التدين الكاذب على خطابها السياسي والاجتماعي . وإذ حاولت أن تسحب البساط من تحت أقدام الحركات الأصولية المتطرفة التي بدأت تنمو، بهذا التكتيك الفج وغير المحسوب فإنها قوت أرضية تلك الحركات التي استغلت بدورها هذا المناخ بمهارة عالية لتوسيع قواعدها والترويج لخطابها إلى الحد الذي باتت فيه ( تلكم الحركات ) عنصر تهديد لسلطة الدولة ذاتها ( في سبيل المثال، عملية اغتيال السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١ من قبل جماعات إسلامية متطرفة، وهو الذي فتح المجال واسعاً أمام نشاطاتها للتنكيل بالقوى اليسارية في مصر ).

غاب البرنامج السياسي والتنموي الإصلاحي في أجندة الفئات الحاكمة وجعلت كل فئة منها في البلدان العربية شعارها ( جئنا لنبقى ) بغض النظر عن الثمن الإنساني والسياسي والأخلاقي والحضاري لهذا البقاء. وانتقلنا من عهد الانقلابات المتلاحقة وتبدّل الوجوه إلى عهد الدولة المخابراتية المتسلطة، ووراثة السلطة، وفي أسوأ الاحتمالات إلى حالة التدخل الأجنبي والاحتلال العسكري.

مضت الحكومات العربية إلى الحرب تحت راية القومية والوحدة العربية، بيد أن العقود الأربعة التالية شهدت تشظياً للقوى العربية أكبر، وخلافات أعمق، وانكفاء إلى التشكيلات ما قبل الدولة حتى باتت الدولة ( العربية ) الواحدة مهددة نفسها بالتمزق والتشرذم، وحتى صار الوضع العربي برمته، اليوم، في حال أشد رداءة.. تراجع النمو الاقتصادي، وزادت نسب الأمية، وتدهورت البيئة الطبيعية في أغلب البلدان العربية، واستشرى الفساد الإداري والمالي، وهاجرت العقول والمواهب الإبداعية أو هربت، وحصل نزيف غير مسبوق بهذا الصدد فقدنا في إثره أفضل مفكرينا ومبدعينا وعلمائنا وتقنيينا.

منطقياً، لابد أن تفرض هزيمة بحجم ما حدث في حزيران ١٩٦٧ تحديات عظيمة وقاسية على الأمة المهزومة، تتطلب الشروع بالعمل، غير أن قوة الصدمة أصابت عصب الأمة بالشلل المؤقت والذي لم تبرأ منه تماماً حتى هذه الساعة. ولذا لم نكتشف بعد مكامن الطاقة فينا، ولم نتعرف بعد على حجم مواردنا، ولا نعرف كيف نوظفها ونديرها بالمعنى السياسي والحضاري معاً. إننا ضحية ممنوعاتنا ومحرماتنا والإكراهات التي صنعناها بأيدينا، والتي باتت تعيق فينا ملكة العقل والتفكير وإرادة التدبير.. إننا لا نفكر على وفق مقتضيات وضرورات تجاوز الهزيمة في أنفسنا وداخلنا أولاً، وعلى أرض الواقع، وفي التاريخ، في الوقت نفسه، وفيما بعد. ولذا يجب أن تكون معركة العربي مع ذاته في البدء، وأن يكون تحديه قبل أي شيء آخر، هو بناء الدولة الحديثة. ذلك أن الدخول في صراعات القوى في العصر الراهن سيبقى مغامرة خاسرة مقدماً مع عقلية ما قبل الدولة، ومؤسسات ما قبل الدولة، وآليات عمل ما قبل الدولة.

أنهت الهزيمة مسوغات بقاء أنظمة ومؤسسات وأفكار وقيم ومعايير وتقاليد ليقترح التاريخ شيئاً آخر جديداً، لكن جزءاً عصياً من القديم لم يمت تماماً بعد، إنْ لم نقل أنها انتعشت في أماكن عديدة، وجزءاً مهماً وواسعاً من الجديد ما زالت ولادته عسيرة.

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@yahoo.com